

بشير... أين أنت؟..

الكولونيل شربل بركات

في هذا الزمن الرديء يفتقد الرجال. أو كما يقال : "في الليلة الظلماء يفتقد البدر". هل من ظلام أكثر من هذا؟ هل من أوضاع أسوأ من التي يمر بها لبنان؟ أين أنت يا بشير؟ يا حاملا شعلة الحرية يا سائرا في أول الصفوف، لا الموت أخافك، وقد ركبت حصانه، ولا كثرة الأعداء. لا الأسلحة أزعجتك، ولا تخاذل الأصدقاء. ولم يفزعك أن انقسم البيت أو كثر المبعضون. فالوطن الحر والحياة الكريمة لأبنائه كانت وحدها مبتغاك.

فناضلت. يوم حملت السيف ووقفت في بيروت تدافع عن أحيائها، كان المقاتلون المحترفون والقادة المتمرسون يحسبون ألف حساب، فأبو عمار وشلتته لم يكونوا قلة، فقد أزهبوا العالم. ولم تهب ولم تتراجع... وقفت فساندك الشباب. وآمن بك الشيوخ. وصلت لك الأمهات. فقام لبنان وتسور العرين وتدافع الأسد. وشعر سيد الشام أنك قادر فأطلق النداء والتف على أصحابه، ليدخل البيت بالحيلة لأنه لم يقوى على ذلك بالحرب. فأخرجته أنت. بقرارك الحر. بإرادتك الحديدية. وبإيمانك العميق، وجعلته يسحب أذياله وجراحه ويقبل بحقنا في الكرامة والحياة. وصار لنا بيت صغير وارض صغيرة. "ولا أبيع أرضي بذهب الأرض". وكانت الأيام ونادتك زحلة فهبيت لنجدتها... وسانددت الجنوب وأرضه، فأحبك الكل ورأوا فيك صورة المخلص، ونبع الشجاعة، وحكمة الأجيال.

ورأوا فيك خير القائد وصاحب الرؤية الذي يحلم بالوطن العظيم، وبالمجد يكلل هامات لبنان فتزهو القمم وتتغاوى، ويرصع بياضها بحضارة الخير والعطاء فتزهر فخرا و عنفوان. وكنت الحلم... وكاد أن يصبح حقيقة. وتحضرت المشاريع، وتنظمت البنى، وتشكلت المؤسسات. ولمس المواطن أن المستحيل مستطاع. ولم تعد الأرجل تحملنا بل الرياح. وصرنا في السلم رجاله، وفي الحرب أبطالها، وفي الحق القضاة، وكاد العدل أن يسود وكاد الأمن أن يستتب. وأصبحنا المثل والمحتذى.

ثم

وبدون حساب سقط البطل. انكسر الحلم وضاع الوطن. وعاد الظلم يعيش في البيوت. ورجعت الحرب تدق الأبواب. وغاب الركن وفقد الأمل فأين القائد؟

نفتقدك اليوم في صراعنا مع الغير في نضالنا للحرية. في سعينا وراء اللقمة الكريمة، فلا الزعماء قادة، وقد كثر المراؤون. ولا المسارات واضحة بالرغم من الاندفاع، ولا أمل في تخطيط أو

نظافة كف أو رؤيا. فهل ولى زمن الأبطال؟ وهل جف نبع القادة؟ أم هل ما كنته أنت أفقدنا الثقة بكل ما هو دونك؟ يا بشير، ويا رفاق البشير، اليوم وفي ذكراك ماذا نفعل؟ أنتنظر اجتماع الرفاق وقد شنتهم الأعداء؟ أم نقبل بالظلم ونعض على الجراح؟

لا وألف لا، ففي كل بيت بشير جدي، وفي كل طفل، سنجدد الوعد، سنجدد العزم، وسننطلق. نتابع المسيرة بكل فخر... بكل عنفوان، وسوف يعلم العالم، العدو والصديق، أن لبنان لأبنائه ولو تحالف الكل ضده وسيبقى شوكة في عيونهم، وسيبقى مشعلا للشرق... وراية للحرية.

وستفتح السجون، وتكسر الأغلال، ويرجع المحبون، وعلى أرض لبنان سيضحك التراب، فتراب لبنان تراب الشهداء تراب الأحياء، وفيه ينام البشير ولا يزال حلمه حي.

ومثل طائر الفينيق، ومن رماده، سيعود، وسيحلق.